**المحاضرة السادسة: التواصل الثقافي بين الجزائر ومحيطها العربي والاسلامي.**

يعود التواصل بين الجزائر وبقية البلاد العربية مغرباً ومشرقاً الى هجرة علماء وطلبة الجزائر نحو البلاد العربية مغرباً ومشرقاً، الى عدة أسباب والتي يمكن حصرها في مايلي:

**-التاريخية والجغرافية:**

إن الموقع الجغرافي للجزائر في قلب المغرب الإسلامي عزز من سيطرتها على الممرات المائية لغرب البحر الأبيض المتوسط، بوجود مدن على الشريط الساحلي تمتلك موانئ عبور مثل مدينة الجزائر وبجاية وعنابة وجيجل ومستغانم ومدينة وهران وتنس، هذه الموانئ كانت نقاطاً للتزود بالحاجيات المتعددة التي تحتاجها السفن التجارية من ماء وغذاء ومواد، وهي نقاط اِلتقاء المدن الساحلية لغرب المتوسط مع شرقه، ذات الارتباط الجغرافي مع المدن الساحلية لشبه جزيرة الأندلس.

وقد لعبت مدن الجزائر الساحلية دوراً هاماً في التبادل التجاري بين غرب المتوسط وشرقه،إن الموقع الجغرافي للجزائر عزز من مكانة هذا الإقليم السياسية منذ القدم، واستمرت مكانة المنطقة في العصر الوسيط، واستكمل هذا الدور في الفترة الحديثة عند تعزيز الجزائر لمكانتها الإقليمية ووحدتها السياسية وشخصيتها الدولية.

إنّ ارتباط الجزائر حدودياً مع تونس والمغرب الأقصى، ووقوع مصر وبلاد الحجاز غير بعيدة جغرافياً عنها، جعل الجزائر تتفاعل مع الأحداث السياسية على امتداد هذه المنطقة. ولا أدلّ على ذلك أن إقليم المغرب الاسلامي الأوسط، كان مهدًا لميلاد دول عديدة، كانت لها علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية مع دول في تونس والمغرب الأقصى وبلاد مصر والحجاز.

إن الجزائر جزء من الوحدة التاريخية للمغرب الإسلامي، ولمنطقة المشرق. إذ يدل على التفاعل السياسي بين الوحدات السياسية التي كانت قائمة في أرجاء بلاد المشرق والمغرب. إن هذا الجزء كان له تأثيره الواضح على الوحدات السياسية قديماً، وقد احتفظ بهذا التأثير في علاقاته المتعددة مع الكيانات السياسية المجاورة في الفترة الحديثة.

**- الدينية والثقافية :**

لقد شكل الدين الإسلامي دائماً الرابط القوي بين سكان بلاد المغرب الأوسط وسكان المغرب الأخرى بل حتى مناطق المشرق والبعيدة. وكان هذا الرابط في إطار قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات14. وإذا كانت بلاد المشرق قد احتضنت الدعوة الإسلامية ونقلتها إلى مناطق بعيدة مثل بلاد المغرب، فإن هذه الأخيرة دافعت عنها، لعدة قرون ضد الغزو الصليبي في الفترة الحديثة.

وقد ارتبطت الجزائر بالإيالات العربية العثمانية في شمال إفريقيا بروابط إجتماعية وثقافية قوية، نظراً لحركة الهجرة من الجزائر إلى هذه البلاد في إطار حركة التجارة أو في مواسم الحج أو رحلة العلماء لطلب العلم.

وكان الحج وهجرة العلماء يمثلان مظهرين في حركة التواصل بين الجزائر وبلدان المشرق الاسلامي، وكانت قوافل الحج الجزائرية المتجهة إلى بلاد الحجاز، تمر بالمدن التونسية وتعبُر إقليم طرابلس الغرب ثمّ بالمدن المصرية.

وكانت قافلة الحج تُعبّر عن الروابط الدينية المتينة التي تجمع بين مسلمي الجزائر وغيرهم من مسلمي بلاد تونس ومصر والحجاز، واستطاعت هذه الروابط القضاء على كل المعيقات السياسية التي تظهر من حين لآخر بين كيانات المنطقتين.

والجدير بالذكر، فإن الدولة العثمانية لم تفرض حدوداً سياسية تمنع إنتقال علماء المغرب إلى المشرق، بل شاعت حرية إنتقال الأفراد والجماعات بين البلاد العربية. لقد منحت الدولة العثمانية الحرية الكاملة لأجل الانتقال في إطار حركة التجارة أو القيام بمناسك الحج أو طلب العلم خاصة، بهجرة العلماء وطلاب العلم الى حواضر العلوم ومؤسساتها مثل جامع الزيتونة أو جامع الأزهر أو مساجد الحجاز والشام والعراق.

وهكذا كانت بلاد تونس والمغرب الاقصى محطات علمية لكثير من علماء وفقهاء وطلبة الجزائر، الذين توافدوا على جامع الزيتونة وجامعة فاس. كما كانت بلاد المشرق ايضاً تجذبهم نحو الاستزادة من علوم جامعة الأزهر الشريف بمصر ومساجد بلاد الحجاز والشام. غير أن البلاد المصرية وبموقعها الجغرافي بين الشرق والغرب زادها جذباً، لكثير من الجزائريين لتلقي العلوم على أيدي علماء وفقهاء جامع الأزهر، والذين اختاروا الاستقرار في القاهرة أو مدينة الاسكندرية.

ومن علماء الجزائر الذين توافدوا على مدينة القاهرة، نذكر منهم شهاب الدين المقري(ت1641م) وعيسى الثعالبي(ت 1669م) ويحي الشاوي(ت 1685م) وعبد الرزاق بن حمادوش (ت1791م)، وأبو راس الناصري (ت1823م). وكانت لهؤلاء العلماء في مدن مصر وتونس وبلاد الحجاز مكانة علمية راقية واحتكاك دائم مع علماء هذه المناطق.

**-السياسية:**

لا يقل هذا السبب أهمية في هجرة علماء وطلبة العلم، بل في بعض الأثناء اعتبر أكثر أهمية، من خلال الظروف السياسية وأزماتها التي مرت بها الجزائر في تاريخها الحديث. حيث تركت معاملة السلطة العثمانية السيئة للعلماء ومؤسسات العلم في الجزائر الأثر السلبي لبعض العلماء الذين فضلوا الهجرة لمناطق أكثر أمناً.

فقد انتقلت أخبار المعاملة السيئة من اضطهاد ومضايقات اتجاه العلماء بسرعة في وسط العامة من الناس والذين تأثروا بشكل كبير لذلك، باعتبار أن العالم والفقيه وطالب العلم في حواضر الجزائر يستأثرون بالمكانة المميزة، ما شكل صدمة لديهم وزادت كراهيتهم للسلطة العثمانية.

**ج-نماذج لبعض من هاجروا من علماء الجزائر:**

**-نحو البلاد المغاربية:**

**-بلاد المغرب الأقصى:** بعض من علماء الجزائر الذين هاجروا طلباً للعلم نحو بلاد المغرب الاقصى.

***أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي أبو العباس التلمساني الونشريسي:** نشأ وتعلم بمدينة تلمسان على يد كبار علماء المدينة، كالإمام أبي الفضل قاسم بن سعيد العقباني والخطيب الصالح ابن مرزوق والامام محمد بن العباس وابي الجلاب. فرّ الى بلاد المغرب الاقصى وبالضبط الى مدينة فاس، نظراً لجرأته في مخاطبة الحكام بالحق مما ادى بالسلطة في مدينة تلمسان أن تأمر بالقبض عليه ومصادرة أملاكه سنة 874هـ/1469م. وأصبح من المدرسيين الذي يُقبل عليه الطلاب، وتخرج عليه عدد من العلماء مثل الفقيه أبي عباد بن مليح اللمطي، الشيخ أبي زكرياء السوسي، الفقيه المحدث محمد بن عبد الجبار الورترغيري، والعلامة محمد ابن الغرديس وغيرهم، ومن آثاره العلمية العيار المعرب عن فتاوي علماء افريقيا والاندلس والمغرب، توفي رحمة الله عليه بتاريخ 1508م.

***محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني:** ولد بتلمسان سنة 1502 تلقى العلوم القرآنية بمساجد ومدارس تلمسان، هاجر الى فاس سنة 1551 للتبحر في العلوم على يد علماء وشيوخ جامعة القرويين مثل الفقيه عبد الله محمد بن موسى، توفى سنة 1573.

وهناك مجموعة أخرى من علماء الجزائر الذين هاجروا الى بلاد المغرب الأقصى، مثل ابو عبد الله محمد سعيد قدوره الجزائري(1678)، ابو الحسن جابر بن أحمد بن ابراهيم الحسني التلمساني( توفى أواخر القرن 16)،احمد بن محمد جيدة الوهراني(ت1548)، أحمد بن محمد المقري(1578-1631)، محمد بن أحمد الحسيني الكماد( توفى 1704).

- **بلاد تونس:** بعض من علماء الجزائر الذين هاجروا طلباً للعلم نحو تونس.

***أحمد بن عمار الجزائري (توفى1790).**

هو أحمد بن عبد الله بن عمار الملقب بأبي العباس، وعرف بابن عمار، فقيه ومفت مالكي، وأديب وشاعر، ولد بالجزائر سنة1119هـ/1707م، تلقى أحمد بن عمار تعليمه بالمدينة على يد عدد من علمائها وفقهائها، ثم قام بالتدريس في الجامع الاعظم ثم تولى وظيفة الافتاء على المذهب المالكي، ومن انتاجه العلمي نذكر على سبيل الحصر نحلة اللبيب، ولواء العصر في فضلاء العصر، وحاشية على الخفاجي، توفى رحمة الله عليه سنة 1790، وقد ذكرت المصار التاريخية انه هاجر الى تونس وفيها ناظر عدد من العلماء والف عدة رسائل في الادب والتفسير، وكتب عن سيرة الباي التونسي علي باشا بن حسن وكان صديق للوزير حمودة بن عبد العزيز.

***عبد الرزاق بن حمادوش (توفى 1791).**

هو الطبيب عبد الرزاق بن حمادوش ولد بمدينة الجزائر سنة 1695، تلقى علومه في سن مبكرة على يد مجموعة من العلماء، وبعد أن استكمل تعليمه العام في مدينة الجزائر، بدأ في زيارة الحواضر العلمية في فاس والزيتونة حيث استكمل دراسته العليا على يد شيوخ العلم في هذه المدن. وكان اهتمامه واضحاً في مجال الطب، وأخذ العلوم الطبية من أمهر أساتذة الطب مثل العلامة عبد الوهاب الأدرق، وكان كثير المطالعة على كتب الطب مثل كتب ابن

سينا وابن البيطار، ومن كتبه في هذا الميدان كتاب كشف الركوز في بيان الأعشاب، وكتاب الجوهر المكنون، وتوفى رحمه الله سنة 1791م.

وهناك عدد من علماء الجزائر الذين توافدوا على تونس لطلب العلم في الفترة الحديثة، وكثير من علماء الجزائر الذين استفادوا من مختلف العلوم التي كانت تزخر بها جامعة الزيتونة التي وفرت للجزائريين المناخ السليم من أجل الولوج الى بواطن العلوم النقية المختلفة والتي استفادت منها تونس ايما استفادة.

- **بلاد مصر**: بعض من علماء الجزائر الذين هاجروا طلباً للعلم نحو البلاد المصرية.

كانت مصر وجامعها الأزهر قبلة علماء وطلبة الجزائر في العهد العثماني، فقد توافد عدد كبير منهم، كما استقر الكثير منهم في مدينتي القاهرة والإسكندرية، مثل الأديب بن عمار(ت1790م) وأحمد بن قاسم بن ساسي البوني(ت1762م) والشيخ محمد بن محمود العنابي الجزائري(ت1850م) والشيخ الفقيه عبد الرزاق بن حمادوش(ت1783م).

ويمدح المؤرخ المصري الجبرتي أحد علماء الجزائر وهو أبو العباس الجزائري بقوله «... مهر في الآلات والفنون... وأقرأ الطلبة وراج أمره لفصاحته ... صارت له في الرواق كلمة... واحترامه علماء مذهبه... وكان مجاجا عظيم المراس....» ، ويصف الجبرتي عالمًا جزائريًا آخر وهو أبو الحسن بن عمر علي القلعي« ...كان وافر الحرمة نافذ الكلمة معدودًا فيها من المشايخ الكبار....».

ويتحدث أبو راس الناصري عن وجوده في مصر «... ركبت البحر إلى مصر، ودخلت بناءها المبهت المعجب... دار العلوم الزاهرة بالأزهر... لقيت بها العلماء الكبار أهل العلم والأدب... اجتمعت مع علماء مصر بالجامع الأعظم وتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمة....»

وكانت لأبي راس الناصري المعسكري مكانة لدى علماء وطلبة مصر والحجاز، كما كان للشيخ عبد الكريم الفكون (ت1662م) كذلك مكانة لدى أمراء وولاة البلاد التي كان يمر بها أميرًا لركب الحج الجزائري. ومهما كان من ذلك الأمر، فإن علماء الجزائر مهما بلغهم من رغد العيش والحياة بعيدًا عن أوطانهم في البلاد المغاربية أو الحجازية، فإنهم يذكرون بلادهم بالخير وخير مثال ما قاله العلامة الجزائري أحمد البجائي(ت ق15م) في مطلع قصيدة:

سلو من سلا ذكر الحبيب ومادنا ولم يدر أن القلب أولى لمن دنا

وبعد ذلك يذكر بلاده وحبه لها، وأهلها بالخير وبالعاطفة الجياشة وبالتأثر ويقول (... فان ساكن لهذه الأرض من علماء وطلبة عند استحضارهم لأشواقهم تشتعل نار المحبة والاعتزاز بها....).

***يحي الشاوي:** هو يحي بن محمد بن عبد الله بن عيسى أبو زكريا النائلي الشاوي المغربي المليانى المالكي. ولد مليانة حوالي1621، تلقى تعليمه بمسقط رأسه، ثم قصد زاوية الشيخ ابهلول المجاجي شمال مدينة الشلف حالياً، ثمّ انتقل الى مدينة تلمسان لينهل العلم على علمائها لين التقى بهم في المدينة مثل سعيد قدوره، وبعد وقت قصير من تواجده بمدينة تلمسان قفل راجعاً الى مدينة الجزائر التي تلقى فيها علوم التوحيد والفقه والتفسير والحديث وعلوم النحو والبلاغة. إلا أن بلوغه مرحلة العلم الواسع جعلته يهاجر الى بلاد والحجاز، لتوسيع مداركه العلمية جيداً. فبعد رحلته الى البقاع المقدسة، زار مصر وجامعها وتلقى علوم أخرى في الفقه والمنطق، ثمّ قام بالتدريس في بعض مدارس القاهرة. وكان الشاوي واسع العلم ومن إنتاجه العلمي الواسع، نذكر كتاب حاشية على شرح العقيدة الصغرى، ورسالة في أصول النحو، وكثرة كتبه التي تركها اينما رحل وارتحل، رحم الله شيخنا وعالمنا يحي الشاوي.

*** أحمد بن القاسم البوني:(1653-1726)**

هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني التميمي، ولد بمدينة بونه( عنابة)، تعود اصوله الى اسرة عريقة في العلوم والتصوف، تلقى تعليمه الأولي على يد أفراد عائلته جده ثمّ ابوه، وقد برع في عدة علوم منها الحديث والفقه. هاجر الى تونس ثمّ مصر وبلاد الحجاز، فأخذ العلوم الدينية على يد عدد من علماء مصر في جامعها ومدارسها، وبعد ذلك عاد الى مسقط رأسه بونه، التي نال فيها مكانة علمية عالية بين العلماء والعامة من الناس.

له كتب كثيرة مثل كتاب فتح الباري في شرح البخاري، والالهام والانتباه في رفع الابهام والاشتباه، والظل الوريف في الحث على العلم الشريف وغيرها رحم الله عالمنا.

لقد أسهم علماء الجزائر الذي هاجروا الى البلاد المغاربية والمشرقية بعلمهم وتعدد مواهبهم، في مجال التدريس والمناظرات والانتاج الفكري، واكتسبوا مكانة كبيرة في مجتمعات غيرهم بين العامة والخاصة من العلماء، وتميز تواجدهم بين الناس بأخلاق اسلامية عالية شهد لها علماء وطلبة مدارس وجامعات تلك البلدان.

وقد تخرج على أيديهم عدد من طلبة العلم، بل تقرّب اليهم امراؤها وحكامها وسلاطينها بالمكانة والهدايا والاموال نظير تفوقهم ، وترك انتاجهم الفكري احترام العلماء وتتزين مكتباتهم اليوم بكتبهم الجليلة، وتقام لهم ايام دراسية تاريخية أو فقهية للتذكير بهم نظير مكانتهم بين علماء عصرهم.